فـــن الجنـــاس
في المذهب الشعري لأبي تمام

أ.د. فائـز طـه عمـر
كلية الآداب – جامعة بغداد

مقدمـــة في المذهب الشعري لأبي تمام :

الشاعر فارس اللغة ، يتمكن منها ، مستعيناً بقدرتهُ الإبداعية ، ومعرفته الواسعة والعميقة بها ؛ ومهما قيل عن امتلاك الشـاعر موهبـة فـي الإبـداع الشعري، أو نزعة فنية ، فأنّ ذلك لا يُغني عن الثقافة عامةً ، والثقافة اللغويـة خاصةً ، التي ينهلها من معرفته بالأدب ، ومن استيعابه فنونه وأساليبه ، فضلاً عن مصادر المعرفة اللغوية الأخرى ؛ فالثقافة هي التي تعمّق تجربـة الشـاعر وتمنحها آفاقاً أوسع ، وأقدر على نقل التجربة النفسية والموضوعية فـي نمـط لغوي مُصاغ على وفقِ ما يتطلبه الجمال الشعري للقصيدة ، أو للبيت .

إنّ الشاعر المبدع يرسم مشاعرهُ بالكلمة في سياق من التراكيـب التـي تتجلى بها صور جميلة ومؤثرةً ، معبّراً ، بذلك ، عن شغفه وعشـقه الكبيـرين للفظة ، وللجملة ، وللبناء الفني الذي تتجسد ، فيه ، معالم التجربـة الإنسـانية والإبداعية . وتتألقُ ، في حناياه ، روعةُ التعبير المتسم بالفن وبالجمال ؛ فاللغة. عند الشاعر. قادرة على نقل أدق المعاني وأعقدها ، في بناء شاعري يمنح هذه المعاني قوة فعلٍ في ذهن المتلقي ، هذا الفعل المؤثر هو ، في حقيقته ، مهمـة الشاعر .

ولقد تجسدت هذه المقدرة التي اتسمت بها اللغة العربية في فنون البلاغة التي تمثل العناصر المؤثرة في النص الأدبي .

ولعل الشاعر أبا تمام حبيبَ بن أوس الطائي (المتوفى عام واحد وثلاثين ومائتين للهجرة) ، كان من اولئك الشعراء الذين كانت الكلمة عشـقهم ، ومـن

الفرسان الذين كان الإبداعُ الشعريُ حلبتهم ، فبرز شاعراً مجدداً لأنه عرف قدرة اللغة العربية على التجدد واحتواء المعاني الدقيقة ، وأمن بما تختزنه ألفاظها من قوةٍ إيحائية .

فأبو تمام نظر إلى الكلمة بعقلٍ مفتوح مؤمن بالتطور ، وبحسٍّ مرهفٍ ، فراح يجدد في استعمال اللفظة والتركيب في معانٍ عميقةٍ دقيقة عصيّة الفهم على من ينظر إلى الأشياء نظرة سطحيّة ، ولا يعرف من الصور الاّ مظاهرها التي لا تؤدي إلاّ معنى عابراً ، فالكلمة عنده (تنفتح على أكثر من معنى ، فتتجاوز المعاني القاموسية المألوفة .)[١].

وقياساً على هذا ، فقد جعل أبو تمام : الاستعمالات البلاغية تعبيراً عن القدرة الفنية ، للغة ، لأداء المعاني المؤثرة في النفس ، فراح يكثر من استعمالها ، حتى عُدّ صاحب مذهب جديد في الشعر العربي كان مثار نزاع وجدال وحركة نقدية كبيرة[٢] ، شارك فيها المثقفون العرب والمسلمون ، آنذاك، من نحاة ولغويين وشعراء وكتّاب ، ونقّاد وبلاغيين وغيرهم ، حتى تُوجت هذه الحركة بأكثر كتب النقد الأدبي نضجاً عند العرب ، هو : (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي المتوفى عام (٣٧٠) للهجرة ، ثمرة تفاعل العقول والأذواق واختلافها حول شعر أبي تمام ، وشعر البحتري الذي مثّل ما يُسمى بعمود الشعر المعروف في الشعر العربي[٣] .

ولم يتهيأ لأبي تمام ما حصّله من مقدرة عالية في السيطرة على اللغة ، واستعمالها باسلوب متميز يعطيها طاقةً جديدةً في التعبير عن المعاني المبتكرة من قبله ، لو لم يكن ذا ثقافة عالية عُرق بها ، فلقد رُوي أنه لم يُر أحدٌ أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه منه[٤] ، مما يدلّ على سعة ثقافته الشعرية ، فقوله الشعر لم يكن لرغبة في النّظم فقط ، بل أنّ شعرهُ حصيلةُ ثقافات متنوعة ؛ قديمة تتمثل بالقرآن الكريم ، والتاريخ العربي ، بأخباره وحوادثه ، وبالشعراء القدامى وأشعارهم ؛ وحديثةٍ تحدث بالفلسفة ، والمصطلحات العلمية ، وعقائد

الفرق ، والعامة وأساطيرهم كلُّ ذلك ظهر في شعر غزير مليء برائع المعاني والصور الجميلة[٥] ، حتى عرفَ بأنّه واحد من أكثر المولدين اختراعاً وتوليداً[٦].

إنّ نزوع الشاعر أبي تمام إلى التجديد ، والتفرد من خلاله ، كان أحد أهم الاسباب التي جعلته صاحبَ مذهبٍ جديد في الشعر ، فضلاً عن ثقافته ، فقد أشار الكثير من النقّاد القدامى إلى ما لاحظه عليه معاصروه من ارتكازه على القدرات الذاتية في العملية الابداعية الشعرية ، فكان يتكئ على نفسه كثيراً[٧] ، أي أنه كان يحاول أنْ يُنشئ القصيدة بطريقة معبّرة عن ذاته وشخصيّته ، من دون السير على ما أعتاد عليه الشعراء في نظم قصائدهم، مستعيناً بما عُرف عنه من قدرة ذهنية وقّادة ، تجسدت في ما يروى عن بديهته وسرعتها[٨] ؛ لذا فقد عُدَّ خارجاً على عمود الشعر.

لقد كان من مظاهر تجديده في الشعر ، تعبيره عن معانٍ عميقة ، وعصرية، فاستعمل الألفاظ الحضارية الجديدة التي شاعت في المجتمع العباسي، وترددت ، في قصائده ، كلمات الفلاسفة والمناطقة وغيرهم من المشتغلين بالعلوم، فضلاً عن مصطلحاتهم ؛ كما أنه اغرق شعره بالبديع ، ربما ، انسياقاً وراء
ما شاع في عصره من زخرف وتأنق وميل إلى التجميل والتصنع[٩].

إنّ طريقته الجديدة كانت تعبيراً قوياً عن شخصيته ونزوعه إلى التجدد والتفرد ، فلقد اندمجت ، في شعره ، طريقته وشخصيته ، وصارتا شيئاً واحداً[١٠].

إنّ استعمال أبي تمام البديع كان من أبرز مظاهر مذهبه الخاص في الشعر، وهو ما كان محطَّ اهتمام النقاد والبلاغيين ، إذ لاحظوا أنه قد قصد إليه قصداً ، متجاوزاً الآخرين ممن سبقوه ؛ فلقد كان البديع عند القدماء قليلاً وغير مقصود لذاته ، حتى جاء المجدثون مثل بشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وأبي

نواس ، وغيرهم فأكثروا منه ، على أنّ أبا تمام الذي جاء بعدهم ، أفرط فيه ، وجاوز المقدار[١١] ، حتى وُصِمَ بالتكلف ، وبأنه صاحبُ صنعةٍ مولعٌ بها[١٢]. على أنّ ذلك ، ربما ، كان من مظاهر ثقافته اللغوية والبلاغية ، ولإدراكه تأثير فنون البلاغة في النفوس ، وفي تقوية المعنى ، بيد أنه أفرط في ذلك .

مفهوم الجناس :

لعل ، من أكثر فنون البلاغة التي شاعت في شعره ، الجناس ، الذي يُنبئُ عن طبيعة البديع واستعماله في شعره عامةً ؛ على أنّ الحديث عن البديع في شعر أبي تمام يحتاج إلى دراسة شاملة لا يتمكن مثل هذا البحث من استيعابه لكثرته، وتعدد أنواعه في قصائده.

والجناس فن من الفنون الأصيلة في اللغة العربية ، عرف في الشعر العربي ، قبل الإسلام ، وفي العصور التالية ، وفي القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف مما أُستشهد بكثير منه في كتب البلاغة والنقد[١٣]. وهو ، عند القدماء ، من المحسنات اللفظية للكلام ، غير أنّ البلاغيين والأدباء قد اختلفوا في تحديد مفهومه وحدوده اللفظية ، فشرّقوا فيه وغرّبوا[١٤] ، مما أشار إليه الاستاذ علي الجندي الذي درس الجناس دراسة واسعةً[١٥] ، مستعرضاً ومناقشاً تلك التعريفات التي حاولت تحديده ، منتهياً إلى القول : (لعل أحسن تعريف له وأيسره وأدناه إلى الكمال قول العلوي[١٦] : هو اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما)[١٧] ، أن هذا التعريف هو الأكثر سعةً واحتواءً على أنواع الجناس جميعاً ، على اختلاف مستوى تشابه اللفظين المتجانسين ، وعلى تعدد مسمياتها الاصطلاحية ؛ على أنّ العلوي لم يكن وحده الذي نظر إلى التجانس بهذه السعة ، فالخطيب القزويني كان قد حدّد بقوله : (الجناس بين اللفظين : وهو تشابههما في اللفظ.)[١٨] ، وهو متفق مع قول العلوي ، ومع الأمثلة الجناسية التي جاء بها ابن المعتز في (البديع ، من مثل قوله تعالى : ((وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين))[١٩] ، وقول رسول الله (ﷺ) : [عصيّةُ

عصت الله ، وغفارٌ غفر اللهُ له] . وغير ذلك ممّا ورد في هذا الكتاب[٢٠] ، ومن الجدير بالذكر ، هنا ، أن ما استند إليه ابن المعتز في تحديد هذا الفن ، واختيار شواهده ، هو السبيل الذي كتب الأصمعي كتاب الاجناس عليها[٢١] ، وهو من كتبه المفقودة .

والجناس أنواع عديدة تتحدد من مستوى الاتفاق بين وزن وأحرف الكلمات المتشابهة ، مع الاختلاف في المعنى ، وقد اختلف البلاغيون والنقاد في تحديد التسميات الاصطلاحية لأنواع الجناس هذه ، مما يجعلنا نستند في تحديد أنواع الجناس باصطلاحاتها ، عند أبي تمام ، إلى أحد الأساتذة الذين حاولوا تحديد هذه الانواع ، على وفق ما استخلصه من دراسته الجناس ، ذلك هو الدكتور أحمد مطلوب في كتابه (فنون بلاغية) ؛ لنتجنب الخوض في كلام لا طائل من ورائه ، وليكون تحديدنا أنواعه في شعر أبي تمام مرتكزاً على وحدة التسميات الاصطلاحية لها .

والجناس تكرار[٢٢] لفظي ، يقصد منه تقوية نغمية لجرس الألفاظ[٢٣] . وقد حاول البلاغي ابن الأثير الحلبي المتوفى عام ٧٣٧ للهجرة ، تحديد فائدته ، بقوله: (إنّ تشابه ألفاظ التجنيس تحدث بالسمع ميلاً إليه ، فأنّ النفس تتشوف إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين ، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ ، فصار للتجنيس وقعٌ في النفوس وفائدة .)[٢٤] . وقد بيّن الدكتور ماهر مهدي هلال قيمة هذا القول ، بأنّ صاحبه قد تلمس طريقاً إلى إدراك فائدته ، وقوله تقريرٌ لقيمة الجرس في التجنيس ، من خلال ما تحدثه الألفاظ المتجانسة في التعبير من إثارة وخيال لاستجلاء المعنى[٢٥] . وحدد الأستاذ علي الجندي النواحي التي يُثير الجناسُ الجيد ، منها ، اعجابنا بـ (ناحية التماثل في الصورة ، وناحية الجرس الموسيقي ، واحية التآلف والتخالف بين ركنيه لفظاً ومعنى ، وناحية ما يحويه كل ركن من المعنى الأصلي .)[٢٦]. وقد أوضح الجندي هذه النواحي بإسهاب في صفحات سابقة من كتابه . وكان

عبد القاهر الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ للهجرة ، قد ذكر (أنّ ما يُعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتمّ إلاّ بنصرة المعنى ، إذ لو كانَ باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ..)[٢٧] ، مما يعني أن تحقق التوافق بين اللفظ والمعنى ، في الجناس، هو الذي يُعطي الجناس قوةً وفضلاً. على ان الاستغراق في الحديث عن مزيّة الجناس ، وخصائصه الصحيحة ، مما فألمه النقاد والبلاغيون ، سوف يؤدي إلى تكرار ما ينبغي ذكره في القسم الأخير من هذا البحث والمتعلق بأفكار النقاد والبلاغيين عن جناس أبي تمام ، لذا فسوف نشير إلى هذه الأمور في حينها ، ولا سيما إذا ما علمنا أن استعمال أبي تمام الجناس وإفراطه فيه ، كانا من أهم بواعث الاهتمام بهذا الفن البلاغي .

وقبل ذلك لابد من تحديد أبرز أنواعه في شعر أبي تمام .

أنـــواع الجنـاس في شعر أبـي تمـام :

تمكن أبو تمام من التفنن في الجناس تفنناً ظهر، من خلاله ، فنُّه الشعري؛ فقد حذق في استعماله استعمالاً شاملاً جميع أو أكثر ما عُرف من أنواعه . والباحثُ في موضوع الجناس في شعر أبي تمام لا يستطيع ، بيسر ، حصر جميع أنواعه المستعملة عنده ، مما لا يمثّل هدفنا من هذه الدراسة ، بل هو الإشارة إلى أبرزها التي شاعت في قصائده ، مستندين ، في ذلك ، إلى تقسيم الدكتور أحمد مطلوب أنواع الجناس[٢٨]، الذي اعتمد فيه على ما وجده في كتب القدماء ، ولاسيما ابن الأثير المتوفى عام ٦٣٧ للهجرة ، الذي يبدو أنه الأقرب إلى روح البلاغة العربية ، لكونه أديباً تناول البلاغة تناولاً أدبياً .

وقد وصف ابن الأثير الجناس التام بأنه الجناس الحقيقي[٢٩] الذي يعبر عن اتفاق الكلمتين في لفظهما ووزنهما وحركاتهما ، مع اختلاف في المعنى ، مما يوحي بأنه أخرج سائر الأنواع الأخرى من حقيقة الجناس ، وعدّها مما يُشبّه بالتجنيس[٣٠] . على أن ما رأيناه من أمثلة أتى بها ابن المعتز وغيره ، ومن تعريف له عند الخطيب القزويني ، وعند العلوي يجعلنا نُدخل أية كلمتين

تشابهتا لفظاً ، من دون النظر إلى مستوى هذا التشابه الذي تتحدد به أنواعه ، مع الاختلاف في المعنى ، في مفهوم الجناس بعامةٍ ، مع الإشارة إلى أنّ الجناس التام هو من أكثر أنواع الجناس تعبيراً عن قدرة الأديب على استعمال هذا الفن استعمالاً ناجحاً، وهو مظهر من مظاهر ثقافته اللغوية ، فالجناس التام يدخل في ما يُعرف بالاشتراك اللفظي الذي يعني اشتراك معانٍ عديدة في لفظ واحد ممّا سوف نتناول عدداً من أمثلته في حديثنا عن انواع الجناس في شعر أبي تمام ، في هذا الموضع. والجناس التام قد يُدعى بالكامل أو بالمستوفي[٣١] ، وهو يشترط التطابق اللفظي التام بين الكلمات المتجانسة مع أختلاف المعنى ، ممّا ورد مرةً واحدةً في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ((ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة))[٣٢] ؛ وورد ، أيضاً ، في أحاديث الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام ، وفي الشعر العربي .

وقد جاء ، منه ، في أشعار أبي تمام الكثير ، مما سنشير إليه من خلال ما نورد من أبيات ضمّتْ كلمات متجانسةً تجانساً تاماً . من ذلك قوله :

بيضٌ إذا انتضيتْ من حُجبها رجعَتْ

أحقّ بالبيضِ أبداناً من الحُجُبِ[٣٣]

فبيضٌ الأولى يريد بها السيوف ، وبالثانية يريد الجواري ، وهذا الجناس تام لما في الكلمتين من تطابق كليّ ، مع اختلافهما في المعنى .

وقوله :

أضْحتْ إيادٌ في مَعدٍّ كُلِّها　　وهُمُ إيادُ بنائها الممدود[٣٤]

فإياد الأولى القبيلة العربية المعروفة ، والثانية ما يحيط بالشيء ويدعمه.

وقوله :

لو لم تكُنْ منْ نَبعةٍ نجديّةٍ　　عَلْويّةٍ لظننْتُ عُودكَ عُودا[٣٥]

فعود ، الأولى ، في عودك ، تعني الأصل ، والثانية العود الذي يتبخر به.

وقوله :

تنْمِيكَ فـي قُلَلِ المكـارمِ والعُلـى زُهْرٌ لِزُهـرِ أبوّةٍ وجُـدُودِ[٣٦]

فزهر الأولى أسم قبيلة عربية ، والثانية جمع أزهر وهو الأبيض .

وقوله :

وجدوا جنَابَ المُلْكِ أخْضَرَ واجتلوْا هـارونَ فيهِ كأنـه هـارُونُ[٣٧]

فهارون الأولى اسم الواثق الخليفة العباسي ، والثانية اسم هارون الرشيد[٣٨].

وهكذا فأنّ ما ورد من الجناس التام في قصائد أبي تمام ليس بالقليل ، فأنت تجده مبثوثاً في هذه القصيدة أو تلك من ديوانه[٣٩] ، وما أتينا به حسبُنا من هذا النوع .

ولعل استعمال الجناس الناقص ، بأنواعه يبدو أكثر شيوعاً في شعر أبي تمام، لسهولته ، ولشدة انسياق اللفظ إليه ، إذا ما وافق المعنى ، فما إن يرد اسمُ موضعٍ أو اسمٌ لأيّ شيء آخر ، حتى تومضَ ، في قريحة أبي تمام ، رغبةٌ في صناعة جناس ، فيعمد إليه مجانساً ما يأتي به من ألفاظ مشتقةٍ من اسم ما ورد من موضع أو شيء آخر ، أو تقترب منه بشيء أو بآخر في حدود الجوانب اللفظية التي إذا ما تشابهت فإنها تحقق تناغماً صوتياً يزيد من تأثير المعاني ومن تقريبها، ولاسيما إذا ما كان الطبع لم يجافِ مثل هذه الاستعمالات ، على أنّ كثرتها ، عند أبي تمام ، قارن إلى التكلف ومجافاة الطبع ، إذ كان الجناس هذا مقصوداً إليه في الكثير من المواضع ، مما لم يسق إليه الطبع ، ولم يتطلبه المعنى فمن انواع الجناس الناقص ، في شعره ، ما عُرف بالمختلف الذي (هو أن تكون الحروف متساويةً في تركيبها مختلفة في وزنها)[٤٠] ؛ ومنه الكثير الذي ورد في شعر أبي تمام ، كقوله :

لمّا رأى الحرْبَ رأي العين تُوفَلِسُ　　والحربُ مشتقَّةُ المعنى من الحرب

غدا يصرِّفُ الاموالِ جرْيَتَها　　فغرَّهُ البحرُ ذو التَّيارِ والحدَبِ[٤١]

فالجناس في كلمتي الحرْب والحرَب الواردتين في البيت الأول ، فالاولى على وزن (فعْل) والثانية على وزن (فَعَل) ، على تساوي حروفهما في التركيب ، مع اختلاف في المعنى ، فالحرْب معروفة ، والحرَبُ : أنْ يُسلبَ الرجلُ ماله ؛ على أننا أثبتنا البيت الثاني ليكتمل المعنى الذي بدأ في البيت الأول .

وقوله ، أيضاً :

قومٌ إذا جلَبُوا الجِيادَ إلى الوَغَى　　أيقنْتَ أنَ السُوقَ سوقُ ضِراب[٤٢]

فالجناس من كلمتي السُوق و سَوق الواردتين في الشطر الثاني من البيت، وما بهما من جناسٍ مختلفٍ واضحٌ .

وقوله :

سارَ مُستَقْدماً إلى البأْس يُزْجي　　رَهجاً باسقاً إلى الإبْسيقِ

ناصحاً للمليكِ والمَلكِ القَـ　　ـمِ والمُلْك غير نُصْح مَذيقِ[٤٣]

فالجناس المختلف ، المقصود ، هو في البيت الثاني ، في كلمتي الملك والمُلْك اللتين اتفقتا في أحرفهما واختلفتا في وزنيهما ، مع وجود أنواع جناسية أخرى في (باسقاً) و (الابسيق) وفي (للمليك) مع الكلمتين اللتين اشرنا إلى اتفاقهما في الجناس المختلف.

وقوله :

مَلِكٌ جارَ إذا ملَكَ　　ليس يرثي لمَنْ هَلَكْ[٤٤]

فالجناس المختلف في كلمتي (مَلِكٌ) و (ملَكَ) ، مما هو واضح وقد ورد غير ذلك كثيرٌ من هذا النوع من الجناس في شعر أبي تمام[٤٥] ولعلَ أكثر أنواع الجناس الأخرى شيوعاً وكثرةً ، في شعر أبي تمام ، هو الجناس المطلق ، ويدعى الاشتقاقي ، و (هو أنْ تختلف الأحرف وتتفق الكلمتان في أصل واحد

يجمعهما الاشتقاق)[٤٦] ، ولعل كثرة هذا النوع من الجناس الناقص ترجع إلى سهولة الإتيان به، والتصرف فيه ، وإلى سعته ، وكثيراً ما يرافق أسماء الأمكنة التي يشتق منها أبو تمام أفعالاً أو مصادر أو غير ذلك ؛ كذلك يأتي هذا الجناس، أيضاً ، مع أسماء الأشخاص والأشياء الأخرى ، ويبدو أن لهذا الجناس باعثاً نفسياً أصله ارتياحُ النفس إليه ، وما يجده الشاعر ، عنده ، من ميلٍ إلى الاكثار منه ، تغنياً بالمكان أو بالأسماء الأخرى ، مما قد يفسّر الكثير من الجناس الذي يأتي عرضاً في كلام الناس عامةً .

منه قول أبي تمام :

سيلٌ طمَا لو لم يذدْهُ حادثٌ لتبطَّحتْ أولادُ بالبطحاء[٤٧]

فالجناس المطلق في كلمتي (لتبطَّحتْ) و (بالبطحاء) .

وقوله :

وتعرَّفَتْ عَرفاتُ زاخرَهُ ولم يُخْصصْ كداءٌ منه بالإكداءِ[٤٨]

ففي هذا البيت جناسان مطلقان ، الأول في (تعرّفتْ) و (عرفات) الموضع المعروف ؛ وفي (كداءٌ) الذي هو اسم جبل يُدخل منه إلى مكة ، و (الإكداء) وهي من أكدى الرجلُ إكداءً . إذا طلب حاجةً ولم ينلها[٤٩].

وقوله :

ولطابَ مرتبَعٌ بطيبَةَ واكتستْ بردينِ بُردَ ندىً وبُرْدَ ثَراءِ[٥٠]

فالجناس في (لطابَ) و (بطيبَةَ) وطيبة هي المدينة .

وقوله :

لا يُحْرِمِ الحَرَمانَ خيراً إنّهُمْ حُرِمُوا به نوءاً من الأنْواءِ[٥١]

ففي (يحرم) و (الحرمان) و (حُرموا) جناس مطلق .

إنّ هذه الأبيات التي أتينا بها أمثلة على الجناس المطلق جميعها من قصيدة واحدة ، مما يدلُّ على شدة شغف أبي تمام بهذا النوع من الجناس ،

خاصةً ؛ على أننا إذا قرأنا القصيدة إلى آخرها لوجدنا ، فيها ، جناساتٍ مطلقةً أخرى ، ومن أنواع أخرى أيضاً .

ومن الجناس المطلق ، أيضاً ، قوله :

سعِدَتْ غُربةُ النَّوى بسُعادِ　　فهيَ طوعُ الإتهامِ والإنجادِ[٥٢]

وقوله :

سأخرقُ الخرْقَ بابنِ خرْقاءَ الـ	ـهَيْقِ إذا ما استَحمَّ من نَجْدهْ[٥٣]

وقوله :

ظَلَمتْكَ ظالِمَةُ البريءِ ظُلُومُ　　والظُّلْمُ من ذي قُدْرةٍ مَذمومُ[٥٤]

وقوله :

به سبُتُوا في السَّبتِ بالبيضِ والقنا　　سُباتاً ثوَوْا منهُ إلى الحشرِ نوَّما[٥٥]

وغير ذلك كثير جداً[٥٦].

ومن أنواع الجناس الناقص الأخرى التي كثرت ، في شعر أبي تمام ، المضارع : (وهو أن يجمع بين كلمتين لا اختلافَ بينهما إلا في حرفٍ واحد)[٥٧]، منه قول أبي تمام :

نشرتْ حدائقه فصرْنَ مآلفاً　　لطرائقِ الأنْواء والأنْداءِ[٥٨]

فالجناس المضارع بين كلمتي (الأنْواء) و (الأنداء) ، فلا اختلاف بينهما إلاّ في حرف واحد ، هو الواو في الأنواء والدال في الأنداء .

وقوله :

هَيْهاتَ زُعزعت الأرضُ الوقورُ به

عن غزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غزْوِ مُكْتَسِبِ[٥٩]

فالجناس المضارع بين كلمتي (مُحْتَسِب) و (مُكتسب) .

وقوله :

يومي من الدَّهرِ مثلُ الدهرِ مُشتهِرٌ

عزْماً وحزْماً وساعي منهُ كالحِقَبِ[٦٠]

ففي (عزْماً) و (حزْماً) جناس مضارع .

وقوله :

فاليومَ عوِّضْ فرْحةً من ترْحـــــةٍ　　واليومَ بذْلَ راحماً من حاســـــدِ[٦١]

ففي (فرحة) و (ترحة) جناس مضارع اختلط معه طباق ، فمعنى الكلمة الأولى عكس معنى الثانية .

وقوله :

ألا أيُّهـا المـوتُ فجِّعْتَنـــــا　　بمـــاءِ الحيـاةِ ومـاءِ الحيـاءِ[٦٢]

فبين كلمتي (الحياة) و (الحياء) جناس مضارع جاء منه كثيرٌ في أشاعر أبي تمام[٦٣] ، غير ما ذكرناه .

ومن الجناس الناقص الذي ورد ، أيضاً ، في شعر أبي تمام ، ما يُسمي بالمُذيّل : (وهو أنْ تجيء الكلمتان متجانستي اللفظ متفقتي الحركات والزنة ، خلا أنه ربما وقع بينهما مخالفة ، كقوله تعالى : ((والتفت الساقُ بالساق ، إلى ربّك يومئذٍ المَساق.))[٦٤] ، وكقوله – عليه السلام – : (المسلمُ مَنْ سَلِمَ الناس من لسانه ويده .)[٦٥] ، فهو أقرب إلى الجناس الاشتقاقي في أن الأحرف الاصلية للكلمات المتجانسة تكاد تكون واحدة ، أي أنها من جذْر واحد .

فمما ورد في شعر أبي تمام ، قوله :

إذا ما غدَا أغْدَى كريمةَ مالـــهِ　　هَدِيّاً ولو زُفّتْ لآلام خاطبِ[٦٦]

فالجناس المذيل بين (غدا) و (أغدى) .

وقوله :

يمدّونَ من أيدٍ عَواصٍ عواصـــــمٍ　　تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضـــب[٦٧]

فبين كلمتي (عواصٍ) و (عواصم) ، وبين كلمتي (قواضٍ) و (قواضـــب) جناسٌ مذيّلٌ ، في البيت المذكور . وقوله :

قومٌ إذا وعدوا أو أوعدوا غَمـــروا　　صِدقاً ذوائبَ ما قالـــوا وما فعلـــوا[٦٨]

فالجناس المذيل بين كلمتي (وعدوا) و (أوعدوا) .

وقد ورد ، من هذا الجناس المذيّل ، كثيرٌ ، غير ما ذكرناه ، في شعر أبي تمام[٦٩] . وبعد فأن ما أشرنا إليه من أنواع جناسية في شعر أبي تمام لا يشكل كلّ ما هو موجود منه ، بل أن أبا تمام تفننَ بهذا الفن فخرج إلى تحقيق التناغم الصوتي ، في البيت أو في القصيدة ، على وفق أساليب وطرائق في التجنيس قد لا تكون موجودةً عند سواه ، لما عُرف عنه من ميل إلى التجديد والتفرد . على أننا قد اعتمدنا د. أحمد مطلوب الذي أغفل أنواعاً جناسيةً أخرى موجـــودة فـــي شعر أبي تمام ، منها ما يُدعى بجناس القلب : (وهو ما أختلف فيهِ اللفظان فـــي ترتيب الحروف .)[٧٠] منه قول أبي تمام .

تدبيرُ معتصم باللهِ مُنتقـــــمٍ　　للهِ مُقْتَرِبٍ باللهِ مرتقِـــــبِ[٧١]

فجناس القلب هو بين (مُقترب) و (مرتقب) .

وقوله :

هي فُرْقَةٌ منْ صاحبٍ لـــكَ ماجـــدٍ　　فغَـــداً إذابـــةُ كلّ دَمْـــعٍ جامـــدِ[٧٢]

فبين (ماجد) و (جامد) جناس قلبٍ واضح .

وهذا النوع من الجناس قد أشار إليه أبن الأثير[٧٣] ، بيد أنه لـــم يُطلـــق عليه تسميةً اصطلاحية .

على أنّ من المحدثين منْ أشار إلى أنواع جناسية أخرى ، علـــى وفـــق تسميات اصطلاحية خاصة[٧٤] ، ربما لا تختلف ، في حقيقتها ، عمّا هو معروف من أنواع الجناس ؛ الا أنه قال إنّ أبا تمام ابتدع نوعاً غريباً مـــن التجنـــيس ،

أطلق عليه لقب ((التجنيس المجازي)) ، وأتى بأبيات من شعر أبي تمام مثالاً عليه ، منها :

أعنّي أفرقَ شملَ دمعي فإنني　　أرى الشّملَ منهم ليسَ بالمتقاربِ

معلقاً عليه بأنه استعمل (الشّمل) أولاً استعمالاً مجازياً ، ثم أنه استعملها ثانيةً استعمالاً حقيقياً ، مؤكداً أنّ شملَ الدمع شيء غير شملِ الأحبّة[٧٥] . ولم يكن قائلُ هذه الفكرة مبتدعاً لها ، بل أنها عُرفت في زمن ابن الأثير الذي أشار إليها على أنها من الجهل بالجناس ، وهي ليست منه في شيء ، بل أنه ذكر أنّ من علماء البيان من أسماه بالتّرديد[٧٦] ، أي التكرار ، ويبدو أنه مع هذه التسمية .

والحقُ أنّ أبا تمام استعمل هذا النمط اللفظي كثيراً جداً في قصائده ، وهو عندما يضيف الكلمات المكررة إلى شيء آخر فسوف يكتسب معناها صفةً ممّا تضاف إليه ، على أنّ المعنى الأصلي يظلّ على ما عُرِف في الحقيقة ، لذا فأنّ عدّ تكرار هذه الكلمات جناساً فيه شيءٌ من تحميل هذا المصطلح أكثر من طاقته، ماذا لو سميّ هذا الأسلوب بالتكرار الذي تفنن فيه أبو تمّام ، شأنه فيه شأنه في الفنون الأخرى .

إنّ كثرة استعمال أبي تمام الجناس تكون ذات قيمة فنية أكبر إذا ما نظر إليها في سياقها العام[٧٧] الذي يضم بجانب الجناس كلّ فنون البلاغة المعروفة التي أكثر منها أبو تمام الذي كان استعماله لها متميّزاً من استعمال الآخرين ، فهي تأتي، عنده ، ممتزجةً يمرّ بعضُها في بعض فتتغيّر شياتُها وهيئاتُها ، فهي ألوان ممتزجة فاللون لا يستمر بصورته الأولى بل يأخذ صورة جديدة يتجاذبها لونان أو أكثر[٧٨] .

جناس أبي تمام في المعيار النقدي :

إنّ أفراط أبي تمام في استعمال فنون البديع ، قد جعله هدفاً للكثير من آراء النقاد والبلاغيين الذين يرون أنّ ما يلائم الطبع والمعنى ، من هذا الاستعمال، هو الأكثر قبولاً لديهم ، مما قد لا يتحقق في العديد من هذه

الاستعمالات البلاغية لدى أبي تمام الذي بلغ ، في شعره ، غايات الإساءة والأحسان[٧٩] ، فمن الطبيعي أن نجد لدى أولئك النقاد والبلاغيين أفكاراً تدور حول هذه الاستعمالات وطبيعتها ومكامن خطئها أو صوابها ، على أننا سنشير ، في هذا الموضع ، إلى تلك المتعلقة باستعمال الجناس في شعر أبي تمام .

لعل عبد الله بن المعتز ، المتوفى عام ٢٩٦ للهجرة ، كان من أوائل الذين أشاروا إلى جناس أبي تمام أشارةً جاءت في أثناء حديثه عن الجناس عامةً في كتابه (البديع)[٨٠] ، فقد استشهد بأبيات عديدة من أشعار أبي تمام ، على هذا الفن ، مما يدلّ على أنّ أبن المعتز قد لاحظ كثرة استخدام أبي تمام الجناس ، وقد علق على بعض هذه الأبيات ، بأنّ منها ما هو مسروق من قول الرسول محمد عليه الصلاة والسلام : ((الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة .))[٨١] ، وهو قول أبي تمام :

جلا ظُلُماتِ الظُّلْمِ عن وجهِ أمّهِ　　أضاء لها من كوكبِ الحقّ آفلُه[٨٢]

وعلّق على قوله :

سعدتْ غربةُ النّوى بسُعادِ　　فهي طوعُ الإتهامِ والأتجادِ[٨٣]

بأنه من الأبيات الملاح[٨٤] . مما يدلّ على أعجابه بقسم من جناس أبي تمام ، على أنه أورد أبياتاً لأبي تمام في باب من التجنيس المعيب في الكلام والشعر[٨٥] ، ولم يبيّن سبب ذلك ، مما يقال ، أيضاً ، عن استحساته عدداً منها، ونظنّ أنه قد أستند إلى ذوقه ، في ذلك ، دون تعليل .

ونرى أبا هلال العسكري المتوفى عام ٣٦٥ للهجرة ، يُكثر من الاستشهاد بشعر أبي تمام عند حديثه عن الجناس ، في كتاب الصناعتين[٨٦] ، لكثرته في شعره ، وقد استملح بعضها ، كالبيت الذي أوردناه والذي استحسنه ابن المعتز ، فقد وصفه العسكري بأنه من الابتداءات الملاح[٨٧] ، ثم أنه أشار إلى شيءٍ من تفنن أبي تمام في الجناس ، منها ما لاحظه في بيتين جنّس فيهما أبو تمام أربعة تجنيسات ، ظاناً أنه لم يُسبق إليه[٨٨] ، وهو قوله :

بحوافرٍ حفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبٍ　　وأشاعرٍ شُعرٍ وخَلْقٍ أخلَقِ[٨٩]

وقوله أيضاً :

لسلمى سلامان وعمرة عامـــر　　وهند بني هندٍ وسُعْدى بني سعَـد[٩٠]

ويبدو أن أبا تمام قد لجأ إلى التصنع فـي تحقيـق هـذه الكثـرة مـن التجنيسات في البيتين المذكورين .

وعندما أراد العسكري أنْ يأتي بأمثلة على ما عيب من التجنـيس التجـأ إلى شعر أبي تمام ، فأتى منها بأبيات كان أولها :

أهيسُ أليس لجَـاءٌ إلى همـــمٍ　　تُغرِّقُ الأُسْدَ في آذيِّهـا اللِّيسـا[٩١]

وثانيها :

مرَت بقُرَان عينُ الدِّينِ وانتشرتْ

بالاشترينِ عيونُ الشِّرك فأصطلما[٩٢]

فعلّق على هذا البيت قائلاً : (فهذا مع غثاثة لفظه ، وسوء التجنيس فيه، يشتمل على عيب آخر ، وهو أن انشتار العين لا يوجب الاصطلام .)[٩٣] ثم ختم هذه الأمثلة بشطر من أحد أبيات أبي تمام :

خَشُنْتِ عليه أُخت بني خُشيـــن[٩٤]

معلقاً عليه بقوله : (وهذا في غاية الهجانـة والشـناعة)[٩٥] . وسـوف يتردد هذا البيت كثيراً عند النقاد والبلاغيين مثالاً على ما يأتي به أبـو تمـام ، أحياناً ، من جناس بارد متكلّف .

إن ما قاله العسكري عن جناس أبي تمام قد يستند إلى طبيعـة البلاغـة العربية وروحها ، على أنه لم يبين ذلك ، ولم يعلـل استحسـانه أو اسـتقباحه جناس أبي تمام .

وربما كان أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي المتوفى عام ٣٧٠ للهجرة، في كتابه (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) أكثر نضجاً من غيره ، في آرائـه التي قالها في جناس أبي تمام[٩٦] ، متبدئاً بما لاحظه ، كما لاحظه ابن المعتـز قبله ، من استعمال الجناس ، في أشعار الأوائل ، التي كـان (يـأتي منـه فـي

القصيدة البيت الواحد والبيتان ، على حسب ما يتفق للشاعر ، ويحضر في خاطره ، وفي الأكثر لا يعتمده ، وربما خلا ديوان الشاعر المكثر منه ، فلا تُرى له لفظة واحدة)[٩٧]، مما يعني أنّ الطبع هو الذي يتطلبه ، أحياناً ، فلا يقصد إليه الشاعر ، غير أنّ أبا تمام اعتمده (وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه.)[٩٨] مما جعله متكلفاً ، (فلو كان قَلَّلَ منه واقتصر على مثل قوله :

* يا ربعُ لو رَبَعوا على ابن همـوم *[٩٩]

وقوله : * أرامةُ كُنتِ مألف كلِّ ريـمِ *[١٠٠] ... وقوله ....

وأشباه هذا من الالفاظ المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى – لكان قد أتى على الغرض ، وتخلص من الهُجنة والعيب .)[١٠١] .

ثم يورد أبياتاً عديدةً[١٠٢] فيها جناس يصفه بأنه (في غاية البشاعة والركاكة والهجانة ..)[١٠٣] ، بل يسخر من أحدها واصفاً أياه بأنه (من كلام المير سمين.)[١٠٤] ، وهو قول أبي تمام :

فاسلمْ سلمتَ من الآفاتِ ما سلمتْ سلامُ سلمى ومهما أورقَ السَّلَم[١٠٥]

ينصح من كلام الآمدي أنه يرفض قسماً من جناس أبي تمام لأسباب ، فرفضه معلل ، مما يعد مزيةً له ، وهذه الأسباب ، منها ، أنه يتكلفه فيقصد إليه قصداً ، مما جعله يُكثر منه كثرةً مفرطةً ، جعلت كثيراً منه غير متلائم مع المعنى؛ والعكس يقال عن الكثير من استعمالاته الجناس ، فقد كانت ، عنده ، لائقةً بالمعنى ، وغير متكلفة ؛ على أن الآمدي قال إن اساءته أكثر من إحسانه[١٠٦] .

وللقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى عام ٣٩٢ للهجرة ، حديثٌ عن الجناس عامةً في كتابه : (الوساطة بين المتنبي وخصومه)[١٠٧] ، وقد أكثر ، في اثنائه ، من الاستشهاد بشعر أبي تمام في الجناس ، مما يدلّ على ملاحظته كثرته عند أبي تمام ، شأنه شأن الآخرين من النقاد والبلاغيين ؛ على أنه تميّز من غيره بتعليقاته التي تنبئ عن رأيه في استعمال أبي تمام الجناس ،

والذي يبدو أنه يصمُه بالتكلف في الكثير منه ، مع أنه يبدو معجباً في كثير من استعماله هذا الجناس أيضاً .

فأبو تمام ، عند الجرجاني ، طلب البديع (فتحمّله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب.)[١٠٨] ، مما يصدق على الجناس لكونه أحد فنون البديع ؛ فسأل الجرجاني مقرراً ، عن ذلك البيت الذي رفضه معظم النقاد والبلاغيين ، بقوله : (وأيّ شعر أقلّ ماء ، وأبعد من أنْ يرفّ عليه ريحان القلوب ، من قوله[١٠٩] :

خشنت عليه أخت بني الخشين وانجح فيك قولُ العاذلين.)[١١٠]

وعند حديثه عن الجناس أورد أبياتاً من شعر أبي تمام يبدو أنه معجبٌ بها[١١١] ، بدليل أنه بعد انتهائه منها قال : (فإنْ حملَ نفسه على التكلف ، وفارق الطبع إلى التعمق أراك مثل قوله : ..... وقوله :

ذهبت بمذهبه السماحةُ فالتوتْ فيه الظنونُ أمُذهبٌ أم مَذهبُ[١١٢]

وقوله :

المجدُ لا يرضى بأنْ ترضى بأنْ يرضى المؤمل منك إلاّ بالرّضا[١١٣]

بلغنا أن اسحق بن إبراهيم الموصلي سمعه ينشد هذا البيت ، فقال له أنْ: يا هذا ؛ لقد شققتَ على نفسك ، إن الشعرَ لأقربُ مما تظن .)[١١٤]

وفي (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) ، تحدث أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى عام ٤٥٦ للهجرة ، عن الجناس أو ما أسماه بالتجنس[١١٥] ، فعرّفه وأشار إلى أنواعه مستعيناً بالأمثلة الشعرية ، التي أكثر منها، ولاسيما تلك التي أوردها من شعر أبي تمام ، شأنه شأن البلاغيين والنقاد الذين لاحظوا ، وهو معهم ، كثرة الجناس في شعر شاعرنا ؛ غير أنه لم يعلق على هذه الأبيات ، ما عدا أنه عند ذكره قول أبي تمام :

سحابٌ متى يسحَبْ على النّبت ذيلَهُ فلا رجلٌ ينْمو عليه ولا جعْدُ[١١٦]

قال : (واستثقل قومٌ هذا التجنيس ، وحُقّ لهم .)[١١٧] ، مما يعني أنه مع استثقال هذا الجناس ، غير أنه أورده مع أبيات أخرى فيها جناس ، علّق عليها

بقوله : (فما كان من التجنيس هكذا فهو الجيد المستحسن ، وما ظهرت فيه الكلفة فلا فائدة منه .)[١١٨] ، مما قد يدفعنا إلى الظن أنّ القيرواني قد وقع في تناقض ؛ ومهما يكن من أمر فأنه يرفض التكلف في الاتيان بالجناس .

ولعلنا نجد في ما قاله أبو محمد محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي المتوفى عام ٤٦٦ للهجرة ، في كتابه (سر الفصاحة) وضوحاً في أفكاره عن الجناس[١١٩] عامةً ، وعن جناس أبي تمام خاصةً ، فهو إذ يستقبح أبياتاً فيها جناس ، يعلل هذا ، غير أنه لم يخرج عما هو معروف من مقاييس في النقد العربي والبلاغة ، تتعلق بتفضيل الاستعمال البديعي المنسجم مع الطبع . وغير المتكلف ، وغير المقصود لذاته ، فهو يقول عن الجناس إنه (انما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلاً غير متكلف ، ولا مقصود في نفسه.)[١٢٠]. ثم يذكر ما جرّ الاكثار من الجناس عند أبي تمام ، من وقوع الجيد منه (والرديء الذي لا غاية وراءه في القبح.)[١٢١] ، فالأكثار منه هو الذي يجرّ إلى التكلف ثم إلى الرداءة في استعماله ، مما يقال عن فنون البلاغة الأخرى ؛ على أنّ الأكثار ، أيضاً ، يؤدي إلى ظهور جناس جيد بجانب الرديء .

ثم يورد أبياتاً من الجناس المختار لأبي تمام ، منها :

أرامةُ كنتِ فألفَ كل ريـــمٍ لو استمتعتِ بالأُنس المُقيـــم[١٢٢]

ثم يأتي بأبيات أخرى من قبيح تجنيس أبي تمام ، ورد عدد منها عند سواه من النقاد والبلاغيين ، ممن ذكرناهم ؛ ثم يعلق قائلاً : (وله من هذا الجنس أبيات كثيرة ، والسبب في ذلك أنه أحب الأكثار ولم يقنع باليسير الذي يسمح به خاطره، ويقع بغير تكلف ولا تعمل .)[١٢٣] .

وهذا التعليل مما أشرنا إليه ، قبل قليل ، فالجناس الجيد هو الذي وافق الطبع .

ولعبد القاهر الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ للهجرة فصلٌ ممتاز عن الجناس، أو ما أسماه بالتجنيس ، في كتابه ((أسرار البلاغة))[١٢٤] ، بين فيه سبب استحسانه الجناس ، ومزاياه التي تجعله مقبولاً ، وميل الشعراء المحدثين.

في زمانه، إلى الاكثار منه ، مما أوقعهم في التكلف ، وغير ذلك ، مستعيناً ، في ذلك، بالشواهد الشعرية من شعر أبي تمّام والبحتري وغيرهما ، والنثرية من كتابات الجاحظ . على أنه قد ذمّ بعض جناس أبي تمام ، لعدم وقوع معنيي اللفظتين المتجانستين ، من العقل ، موقعاً حميداً ، ولأنّ مرمى الجامع بينهما لم يكن بعيداً، مما قد بدأ به فصله عن الجناس[١٢٥] ، موازناً بين جناس أبي تمام الذي وجده ضعيفاً ، في البيت الذي قال فيه :

ذهبتْ بمذهبه السَّماحةُ فالتـــوتْ فيه الظنـونُ أمذهبٌ أم مُذهـبُ[١٢٦]

والجناس الذي وجده حسناً في قول القائل : (حتى نجا من خوفِـهِ ومـا نجا)[١٢٧] ، وقول المُحدث :

ناظِراهُ فيما جنى ناظِـــراهُ أوْ دعاني أمتْ بما أودَعانـــي[١٢٨]

فتساءل هل كان عدم استحسان جناس أبي تمام فـي البيـت المـذكور ، واستحسان الجناس في القول والبيت المذكورين ، لأمر يرجع إلى اللفظ . أم لأنّ الفائدة ضعفتْ عن الأول (أي بيت أبي تمام) ، وقويت فـي الثـاني ؟ فـرأى أنّ (مذهب) و (مُذهب)[١٢٩] ، لم تخرجا من تكرار حروف لا تجـد لهـا فائـدةً إلا مجهولةً منكرة ، بيد أن الآخر (قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ويُوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها .)[١٣٠] ، ثم يؤكد عبـد القاهر ، في الموضع ذاته ، أن ما يعطي الجناس من الفضيلة (أمرٌ لـم يـتمّ إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مُستهجن .) أي أن المعنى هو الذي ينبغي أن يسوق إلى الجناس فيـأتي ملائماً له ، منسجماً معه ، فالعلاقات السياقية في الجناس يجب أن تُفضي إلـى إدراك تغاير في المعنى مع اتفاق اللفظ .

ثم أنه يذم الأكثار من الجناس والولوع به ، ولاسيما عند المتأخرين الذين دفعهم فرط شغفهم به إلى الأكثار منه والتكلف في صناعته ، دون مـا يتطلبـه

المعنى الذي إذا طلبه واستدعاه وساق نحوه ، كان جناساً مقبولاً[١٣١] ، لذ فأنه استحسن جناساً وقع في عدد من أبيات أبي تمام ، للسبب نفسه ، منها قوله :

وأنجدتُمُ من بعدِ إتهامِ داركُمْ　　فيا دمعُ أنجِدْني على ساكِني نَجْدِ[١٣٢]

وقوله :

هُنَّ الحمامُ فإنْ كسرْتَ عيافَةً　　من حائهنَّ فإنَّهُنَّ حمَامُ[١٣٣]

على أنه يقول إنّ أبا تمام كثيراً ما كان يسيء في جناسه (إذا أسلمَ نفسه للتكلف ، ويرى أنه إنْ مرّ على اسم موضع يحتاج إلى ذكره ، أو يتصل بقصة يذكرها في شعره ، من دون أن يشتقّ منه تجنيساً ، أو يعمل فيه بديعاً ، فقد باءَ بأثم، وأخلّ بفرضٍ حتم .)[١٣٤] ثم أورد أمثلةً على ذلك ، بعضها ممّا ورد عند من سبقه من النقاد والبلاغيين الذين ذُكروا في هذا البحث .

يتضح ، من حديث عبد القاهر ، عن الجناس عامةً ، وعن ميل أبي تمام إليه وأكثاره منه خاصةً ، ما يتمتع به الرجل من فكر ثاقب ، ومقدرة تحليلية لنصوص الشعر وغيره ، لأستنباط الحقائق التي تتعلق بهذا الفن البلاغي أو ذاك، مما نجده في دقة ملاحظته بعض الظواهر في جناس أبي تمام ، منها أنه ما أن يمرّ به اسم موضع أو اسم شخص وغيرهما حتى يشتقّ منه جناساً ، ربما كان لا يتطلبه المعنى ، فيظهر متكلفاً غير مطبوع .

وفي (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين بن الأثير المتوفى عام ٦٣٧ للهجرة ، فصلٌ رائع عن الجناس الذي أسماه بالتجنيس[١٣٥] أيضاً ، أورد ، فيه ، رأيه في حدّ الجناس ، مما أشرنا إليه في صفحة سبقة ، إذ رأى أن الجناس الحقيقي يتطلب التطابق في اللفظ ، مع اختلاف المعنى ، وما سواه فيشبهه ، أي ليس حقيقياً .

وقد أكثر ابن الأثير من إيراد أمثلة على ما أسماه بالجناس الحقيقي ، من شعر أبي تمّام خاصةً ، وعلى ما أسماه بما يُشبه الجناس أيضاً ، ممّا يدلّ على ملاحظته كثرة الجناس ، عند أبي تمام ، كثرةً مفرطة ، إذ صرّحَ بذلك قائلاً : (وقد أكثر أبو تمام من التجنيس في شعره .)[١٣٦] ، بعد أن أورد أبياتاً عديدةً من

شعره[١٣٧] ، يبدو أنه قد استحسنها ، إذ ذكر ذلك ، مع ذكره أنه قد وجد ، في جناسه ، ما هو كريه ومستثقل ، في قوله : (فمنه ما أغربَ فأحسنَ كالذي ذكرتُه، ومنه ما أتى به كريهاً مستثقلاً .)[١٣٨] ، ثم أنه ، بعد قوله ذلك ، أورد أبياتاً[١٣٩] من هذا الكريه المستثقل من جناس أبي تمام ، منها ما ورد عند بعض النقاد والبلاغيين السابقين ، ممن ذُكروا ؛ وقد ذكر ، أيضاً ، أنّه لأبي تمّام (من هذا الغث البارد المتكلف شيء كثير لا حاجة إلى استقصائه ، بل قد أوردنا منه قليلاً يُستدلّ به على أمثاله .)[١٤٠] .

إنّ ابن الأثير ، على ما يبدو ، وجد أن كثرة الجناس عند أبي تمام قد جرّتْهُ إلى التكلف لشغفه به ، مما جعله يكثر هذه الكثرة عنده ، فجاء منه الحسن المقبول ، والغث البارد غير المقبول .

وبعدُ ، فأن ما ذُكر من آراء في جناس أبي تمّام ليست هي كل ما هو موجود في مصادر النقد والبلاغة ، بيد أنها أنضجها وأعمقها وأشهرها ، فقد أكتفت الكتب الأخرى بالاستشهاد بعدد من أبيات أبي تمّام في هذا الفن البلاغي أو ذاك ، مثل الجناس وغيره .

لقد عُني النقاد والبلاغيون بجناس أبي تمام لأنه يشكل فناً بلاغياً متميّزاً، وقد حاول بعضهم تفسير ذلك ، ولاسيما ما يتعلق بالجناس غير المقبول ، بأفكار عميقة تدل على إدراك رائع لطبيعة الاستعمال الصحيح لفنون البلاغة ، غير أن الجناس الذي عُدّ مقبولاً عند بعضهم ، ربما لم يكن كذلك عند غيرهم ، ولاسيما أن أمثلتهم مختلفة غالباً ، مع اتفاقهم على بعض منها ، مما يعني أن العامل ، في ذلك، هو الذوق الخاص المختلف كثيراً والمتفق أحياناً .

الهوامش :

١. الإنسان والتأريخ في شعر أبي تمّام ١/٢٥ .
٢. أنظر الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام . في مواضع كثيرة يصعب حصرها .
٣. أنظر الموازنة ١/٦ .
٤. أنظر أخبار أبي تمام ١١٨ .
٥. أنظر أبو تمام . ثقافته من خلال شعره ٩ .
٦. أنظر العمدة ١/٢٦٥ .
٧. أنظر أخبار أبي تمام ٥٣ ، الموشح ٥٠٢ .
٨. أنظر العمدة ١/١٩٢ .
٩. أنظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ١٧٢-١٧٩ .
١٠. أنظر عبقرية أبي تمام ٢٨ .
١١. أنظر طبقات الشعراء : ٢٣٥ ، الموازنة : ١/٦ ، الوساطة : ١٩ ، سر الفصاحة : ٢٢٦ ، العمدة ١/١٣١ .
١٢. أنظر الموازنة ١/٦ ، العمدة ١/١٣٠ .
١٣. أنظر البديع ٢٥-٣٥ ، الوساطة ٤١-٧٢ ، سر الفصاحة ٢٢٦-٢٣١ وغيرها .
١٤. أنظر المثل السائر ١/٣٤٢ .
١٥. في كتابه : فن الجناس .
١٦. هو يحيى بن حمزة العلوي المتوفى عام ٧٤٩ للهجرة ، صاحب كتاب الطراز .
١٧. فن الجناس : ١٢ ، نقلاً عن الطراز ٣/٣٥١ .
١٨. الإيضاح ٢/٣٨٢ .
١٩. النمل ٤٤ .
٢٠. أنظر البديع ٢٥-٣٥ .
٢١. أنظر م.ن ٢٥ .

٢٢. أنظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢/٥٧١ .
٢٣. أنظر جرس الألفاظ ٢٧٠ .
٢٤. جوهر الكنز ٩١ .
٢٥. أنظر جرس الألفاظ ٢٧٣.
٢٦. فن الجناس ٣٠.
٢٧. أسرار البلاغة ١٢ .
٢٨. أنظر فنون بلاغية ٢٢٣-٢٣٧ .
٢٩. أنظر المثل السائر ١/٣٤٣ .
٣٠. أنظر م.ن ١/٣٤٩ .
٣١. أنظر فنون بلاغية ٢٢٤ .
٣٢. الروم ٥٥ .
٣٣. شرح الصولي لديوان أبي تمّام ١/٢٠٦ .
٣٤. م.ن ١/٣٩١ .
٣٥. م.ن ١/٤٠٥ .
٣٦. م.ن ١/٣٩٢ .
٣٧. م.ن ٣/٤٠ .
٣٨. أنظر م.ن ٣/٤٠ هامش (٢) .
٣٩. أنظـــر م.ن ١/١٨٢ ، ١٩٤، ٣٩٢، ٤٠٤، ٤٦٩، ٥١١، ٥٢١، ٥٤٠، ٢/١٤٣ ، ٣/٥٥ ، ١١٤ ، ٣٨٩ ، ٤٨٠ وغيرها .
٤٠. فنون بلاغية ٢٢٥ .
* تُوفِلس : هو امبراطور بيزنطة ، وقد ورد "توفيل" في قصائد أخرى .
٤١. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١/٢٠٠ .
٤٢. م.ن ١/٢٠٩ .
** الإبسيق : عظيم من عظماء الروم وهو ملك الناطلوق .
٤٣. شرح الصولي لديوان أبي تمام ٢/١٣٣ .
٤٤. م.ن ٣/٤٥٨ .

٤٥. أنظـــر م.ن : ١/١٦٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢/٩٣ ، ١٠١ ، ١٧٤، ٣/٢٣٩ ، ٥٨٢ .

٤٦. فنون بلاغية : ٢٢٥ .

٤٧. شرح الصولي لديوان أبي تمام : ١/١٦٨ .

٤٨. م.ن ١/١٦٩ .

٤٩. أنظر م.ن ١/١٦٩ .

٥٠. م.ن ١/١٧٠ .

٥١. م.ن ١/١٧٠ .

٥٢. م.ن ١/٣٧٣ .

٥٣. م.ن ١/٤١٢ .

٥٤. م.ن ٢/٤١٩ .

٥٥. م.ن ٢/٤٦٣ .

٥٦. أنظـــر م.ن ١/١٧٣، ١٨٢ ، ١٩٠، ١٩١، ٥٣٣، ٥٤٠، ٢/٤٢، ٤٤، ٧١، ١٢٩ ، ٣/١٤ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ٥٥ ، ١٣١ . وغير ذلك كثير .

٥٧. فنون بلاغية ٢٢٨ .

٥٨. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١/١٨٠ .

٥٩. م.ن ١/٢٠١ .

٦٠. م.ن ١/٢٢٢ .

٦١. م.ن ٣/١١٥ .

٦٢. م.ن ٣/٢١٦ .

٦٣. أنظـــــر م.ن : ١/١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩، ٢٢٧، ٢٦٢، ٢٧٢، ٢/١٢، ٣٢، ١١٢، ٢٢١، ٣/٢١ ، ٢٥، ٤٩، ٦٣، ١١٨ .

٦٤. القيامة : ٢٩-٣٠ .

٦٥. فنون بلاغية : ٢٢٧ .

٦٦. شرح الصولي لديوان أبي تمام : ١/٢٨١ .

٦٧. م.ن : ١/٢٨٢ .

٦٨. م.ن : ١٨٧/٢ .

٦٩. أنظـــــر م.ن ١٨٨/١، ٥٣، ٣٥٧، ٤٣٨، ٢١/٢، ٣٩، ٢٠٦، ٢٢١، ٣٠٧، ١١/٣ ، ٢٢٣ ، ٣٢٨، ٥١٣ .

٧٠. جواهر البلاغة ٤٠٢ .

٧١. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١٩٧/١ .

٧٢. م.ن ٣٩٩/١ . وأنظر م.ن ١٨٩/١ ، ٤٩٥، ٤٤٢/٢، ٥٤٥/٣ .

٧٣. أنظر المثل السائر ٣٦٠/١ .

٧٤. أنظر المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها ٦٠٣/٢ وما بعدها .

٧٥. أنظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ٦٠٥/٢-٦٠٧ .

٧٦. أنظر المثل السائر ٣٤٨/١-٣٤٩ .

٧٧. أنظر الصورة الفنية في شعر أبي تمّام ٢٣٧ .

٧٨. أنظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢٣٠ .

٧٩. الموشح ٤٧٥ ، الرأي هذا لأبن المعتز ، في رسالته في شعر أبي تمام .

٨٠. أنظر البديع ٢٥-٣٥ .

٨١. أنظر م.ن ٢٦ .

٨٢. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١٩٩/٢ .

٨٣. م.ن ٣٧٣/١ .

٨٤. أنظر البديع ٢٩ .

٨٥. أنظر البديع ٣٤-٣٥ .

٨٦. أنظر الصناعتين ٣٣٠-٣٤٤ .

٨٧. أنظر م.ن ٣٣٧-٣٣٨ .

٨٨. أنظر م.ن ٣٣٩ .

٨٩. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١٠١/٢ .

٩٠. م.ن ٤٩٠/١ .

٩١. م.ن ٥٧٧/١ .

٩٢. م.ن ٤٣٤/٢ .

٩٣. الصناعتين ٣٣٤ .

٩٤. وتمامه : وأنجح فيكِ قول العاذلينْ . شرح الصولي لديوان أبي تمام ١٤/٣.

٩٥. الصناعتين ٣٤٤ وأنظر الموشح : ٤٦٦ ، ٤٧٤، إذ سبق أبن المعتز غيره إلى ذم هذا الجناس .

٩٦. أنظر الموازنة ٢٦٥/١-٢٧١ .

٩٧. م.ن ٢٦٧/١ .

٩٨. م.ن ٢٦٧/١ .

٩٩. وتمامة : مُستسلم لجوى الفراق سقيم . شرح الصولي لديوان أبي تمام ٤٣٩/٢ .

١٠٠. وتمامه : لو استمتعت بالأُنس المقيم . م.ن ٣٩١/٢ .

١٠١. الموازنة ٢٦٧/١ .

١٠٢. أنظر م.ن ٢٦٨/١-٢٦٩ .

١٠٣. م.ن ٢٦٩/١ .

١٠٤. م.ن ٢٦٩/١ .

١٠٥. شرح الصولي لديوان أبي تمام ٤٥٩/٢ .

١٠٦. أنظر الموازنة ٢٧١/١ .

١٠٧. أنظر الوساطة ٤١-٧٢ .

١٠٨. م.ن ١٩ .

١٠٩. هكذا وردت في الوساطة ٢٠ .

١١٠. الوساطة ٢٠ .

١١١. أنظر م.ن ٤٢-٤٤ .

١١٢. شرح الصولي لديوان أبي تمام ٢٣٣/١ .

١١٣. م.ن ٦٠٨/١ .

١١٤. الوساطة ٧١-٧٢ .

١١٥. أنظر العمدة ٣٢١/١-٣٣٢ .

١١٦. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١/٤٧٠ .

١١٧. العمدة ١/٣٢٣ .

١١٨. م.ن ١/٣٢٩ .

١١٩. أنظر سر الفصاحة ٢٢٦-٢٣١ وأنظر م.ن ١٠٧، ١٠٨، ١٨٤، ١٨٥.

١٢٠. سر الفصاحة ٢٢٦ .

١٢١. م.ن ٢٢٦ .

١٢٢. شرح الصولي لديوان أبي تمام ٢/٣٩١ .

١٢٣. سر الفصاحة ٢٣٠ .

١٢٤. أنظر أسرار البلاغة ١١-٢٥ .

١٢٥. أنظر أسرار البلاغة ١١-١٣ .

١٢٦. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١/٢٣٣ .

١٢٧. أنظر أسرار البلاغة ١٢ هامش (١) .

١٢٨. أنظر م.ن ١٢ هامش (٢) .

١٢٩. مذهب ومُذهب من أذهبه موْهه بالذهب ، ومعناهما واحد .

١٣٠. أسرار البلاغة ١٢ .

١٣١. أنظر أسرار البلاغة ١٥ ، ١٩ .

١٣٢. شرح الصولي لديوان أبي تمام ١/٤٨٣ .

١٣٣. م.ن ٢/٣٧٤ .

١٣٤. أسرار البلاغة ٢١ .

١٣٥. أنظر المثل السائر ١/٣٤٢-٣٦١ .

١٣٦. م.ن ١/٣٤٥ .

١٣٧. أنظر م.ن ١/٣٤٣-٣٤٥ .

١٣٨. م.ن ١/٣٤٥ .

١٣٩. أنظر م.ن ١/٣٤٥-٣٤٦ .

١٤٠. م.ن ١/٣٤٦ .

المصـــادر والمراجـــع :

١. أبو تمّام ثقافته من خلال شـــعره : ابتســـام مرهـــون الصـــفار . وزارة الأعلام- دار الحرية للطباعة . بغداد . ١٩٧٢م .

٢. أخبار أبي تمام : أبو بكر محمد بن يحيى الصـــولي . تحقيـــق : خليـــل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي . لجنة التـــأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٣٧م – ١٣٥٦ هـــ .

٣. أسرار البلاغة : الامام عبد القاهر الجرجاني . علـــق حواشـــيه : أحمـــد مصطفى المراغي . مطبعة الاســـتقامة . القـــاهرة . الطبعـــة الأولـــى . ١٣٦٧هـــ – ١٩٤٨ م .

٤. الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام : د. أسعد أحمد علي . دار الكتـــاب اللبناني . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢م – ١٣٩٢ هـــ .

٥. الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني . تحقيق لجنة من الجامع الأزهـــر . مطبعـــة الســـنة المحمدية – القاهرة . أعادت طبعه بالأوفسيت . مكتبة المثنى – بغـــداد . بلا تاريخ .

٦. البديع : عبد الله بن المعتز . اعتنى بنشره : أغناطيوس كراتشقوفسكي . لندن . ١٩٣٥م .

٧. جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : د. ماهر مهدي هلال . دار الرشيد للنشر . بغداد ١٩٨٠ م .

٨. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : أحمد الهاشمي . دار احياء التراث العربي – بيروت – بلا تاريخ .

٩. جوهر الكنز "تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة" : نجم الـــدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبي المتوفى ٧٣٧ هـــ . تحقيق : محمـــد زغلول سلام ، منشأة المعارف . بالأسكندرية . بلا تاريخ .

١٠. الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : الدكتور محمود الربداوي . دار الفكر . بيروت . ١٩٦٧ م .
١١. سر الفصاحة : للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن ستان الخفاجي صححه وعلق عليه : عبد المتعال الصعيدي . مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده . القاهرة . ١٣٧٢هـ-١٩٥٣ م .
١٢. شرح الصولي لديوان أبي تمام : دراسة وتحقيق : خلف رشيد نعمان . الجمهورية العراقية . وزارة الأعلام . بغداد . الطبعة الأولى . الجزء الأول . ١٩٧٧م . الجزء الثاني ١٩٧٨م . الجزء الثالث : دار الرشيد للنشر . بغداد ١٩٨٢م .
١٣. الصناعتين الكتابة والشعر : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري . تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . عيسى البابي الحلبي وشركاه . القاهرة . ١٩٧١م .
١٤. الصورة الفنية في شعر أبي تمام : الدكتور عبد القادر الرباعي . أربد - الأردن - ١٩٨٠ م .
١٥. طبقات الشعراء . أبن المعتز . تحقيق : عبد الستار أحمد فراج . دار المعارف بمصر . القاهرة ١٩٦٨م .
١٦. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني . مطبعة المقتطف . بمصر ١٣٣٢هـ- ١٩١٤م .
١٧. عبقرية أبي تمام : عبد العزيز سيد الأهل . دار العلم للملايين - بيروت . الطبعة الأولى . ١٩٥١ م .
١٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الجيل . بيروت . الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .
١٩. فن الجناس ، بلاغه - أدب - نقد . علي الجندي . دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٥٤م .

٢٠. الفن ومذاهبه في الشعر العربي : الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف بمصر – القاهرة : الطبعة الرابعة ١٩٦٠م .

٢١. فنون بلاغية . البيان – البديع : الدكتور أحمد مطلوب . دار البحوث العلمية – الكويت . ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

٢٢. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير . تحقيق : دكتور أحمد الحوفي و دكتور بدوي طبانه . مكتبة نهضة مصر ومطبعتها. القاهرة . ١٩٦٢م .

٢٣. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . عبد الله الطيب . دار الفكر العربي . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٠ م .

٢٤. الموازنة بين أبي تمام والبحتري : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي . دار المعارف بمصر . القاهرة . ١٩٦١ م .

٢٥. الموشح مآخذ العلماء على الشعراء .. أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني . تحقيق : علي محمد البجاوي . دار نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٥ م .

٢٦. الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي . دار أحياء الكتب العربية . القاهرة . الطبعة الثانية . ١٩٥١م – ١٣٧٠ هـ .